100 شمعة لمحمد ديب

تصوير صموئيل ليريس (Samuel Leyris) حفيد محمد ديب 1998

أكمل محمد ديب القرن الأول من حضوره في هذا العالم في الواحد والعشرين جويلية وللأسف فإن مئويته تزامنت مع انتشار وباء كورونا الذي سرق الأضواء كلّها، بل وسرق الحياة نفسها، وإذا أضفنا إلى ذلك قلّة الاهتمام بالأدب في بلادنا فإنّ الصورة ستكتمل بشكل مثير للحسرة، خصوصا، حين يتعلّق الأمر بأحد الآباء المؤسسين للأدب الجزائري، الذي لم ينل حظّه من القراءة في بلاده ويكاد يُختصر في الثلاثية الأولى التي كتبها في ظروف خاصّة وتجاوزها بملايين السنوات الضوئية.
وإذ سبق لكراس الثقافة الاحتفاء بمحمد ديب، فإنه يحاول في هذا العدد ألا يتقاطع مع نفسه، حيث سيقدم الكاتب والمترجم الأستاذ عبد السلام يخلف انطباعاته حول ترجمته لكتاب «سيمورغ»، كما سيترجم نصاً لآسيا ديب الابنة الكبرى للكاتب والتي رخصت للنصر بترجمته ونشره و قالت إنها لا تملك شيئاً آخر لتقوله عن والدها، كما يترجم للنصر مقالة للشاعر الفرنسي بيار مارسيل مونموري عن تجربته مع مسرح محمد ديب، كما تطوف بنا الأستاذة المتخصصة في أدب محمد ديب نسيمة يعقوبي بوزيد في عالمه الروائي.

أجراس الأبدي

سليم بوفنداسة

أكمل محمّد ديب مئة سنة من عبوره، ولم تكن المئة الأولى كافيّة لنقرأه على الوجه الصّحيح في البلاد التي شهدت خطواته الأولى وشكّلت ذاكرته الذي ستجود على العالم بكل «هذه» الروائع. فالكاتب يكاد يُختصر إعلامياً في الثلاثيّة الأولى التي تجاوزها منذ أصبح «كاتباً فحسب» بعد الاستقلال، ليس لأنّها قُرأت بل لأنّها حوّلت إلى مسلسل تلفزيونيّ شاهده الجمهور الواسع الذي لا يقرأ الكتب.
و عادةً ما تكون المئويات مناسبةً للشعوب السعيدة لإعادة اكتشاف كُتّابها من خلال طباعة أعمالهم والاحتفاء بهم كرموز، لكنّ الجائحة التي تسرق الحياة حجبت الحديث عن هذه المناسبة، حتى وإن كان محمّد ديب تعرّض لحيفٍ كبيرٍ بسبب جوائح أخرى تعودُ في مجملها إلى عدم الاهتمام بالإبداع الأدبيّ في مجتمع شفويّ وسوء تقدير الكتّاب الحقيقيّين من طرف أنظمة سياسيّة فضّلت غير الحقيقيّين، ويكفي أن نستمع إلى ما قاله ديب نفسه في حوار مع محمد زاوي لنعرف أنّه لم يستقرّ في الجزائر لأنّه لم يستطع الحصول على بيت في هذه القارّة الشاسعة، ونعرف أيضاً أنّ المؤسّسة الوطنيّة للكتاب التي كانت تنشر لكلّ من يرفع مخطوطاً في يده، تجاوبت سلبياً مع مسعاه لطبع كتبه طباعةً مزدوجةً يتيح بموجبها للقارئ الجزائري الحصول على أعماله بسعرٍ منخفضٍ يعادل أسعار تلك الكُتب التيً طبعتها المؤسّسة ونسيناها!
ولا شكّ أنّ المشتغلين في حقل الثقافة والآداب والفنون يعرفون ما الذي تحصّل عليه كتّاب الثورة الزراعيّة مقابل طقاطيقهم، ومازال بعضهم إلى يومك هذا يطلبون المزيد، في مقابل تشريد كاتب عرف من البداية أنّ البلاد أخطأت الطّريق. و قد تلخّص قصّة هذا الكاتب مآسي مبدعين جزائريين اضطروا للبحث عن مكان للعيش والإبداع لأنّ وطنهم لم يحتملهم واتسع صدره بالمقابل للصوص.
لكنّ الجانب المضيء في القصّة أن ديب انصرف إلى الكتابة فاخترع الأوطان و الأشجار واخترع اللّغة والموسيقى، اخترع حياة بديلة غير مكترث بالنسيان المدبّر في الجنوب ولا بضيق أهل اللّغة بلغته وقد فاضت وحلّت بها أصوات لم يألفوها.
حسناً، سينقلب النسيان على مخترعيه أما الكاتب فسوف يسكن مئات السنوات القادمة.

أمكنة الطفولة

بقلم: آسيا ديب (البنت الكبرى لمحمد ديب)

ترجمة: عبد السلام يخلف

في هذه المئوية التي نحتفل بها، اتصلت بها للنصر من أجل المشاركة في هذا الملف الذي يعده كراس الثقافة فرحبت بالفكرة وشكرت كثيرا الجريدة التي كانت دائما سباقة في الكتابة عن والدها. تقيم آسيا ديب بمدينة غرونوبل الفرنسية، هي رئيسة "المؤسسة العالمية لأصدقاء محمد ديب" (la Société internationale des amis de Mohammed Dib (SIAMD)) تحاول الحفاظ على الذاكرة، ذاكرة والدها من خلال الوقوف على كل ما ينشر من كتابات وصور حتى لا يقال أي شيء على لسانه أو يتم التجني على كتاباته. تقول إن هدف المؤسسة الأساسي هو نشر أعمال محمد ديب والتعريف بها لدى القراء في كل بقاع العالم باعتبار أن هذه الكتابات تمت ترجمتها إلى بعض اللغات المهمة وتحويل بعضها إلى مسرحيات أو عروض وقراءات في قاعات فنية. تعمل أيضا مع هيئة علمية نشيطة على رأسها "هيرفي سانسون" (Hervé Sanson). إنها تقول: "كان والدي شديد الحرص على تربية أولاده وكان يصر على تتبع كل التفاصيل وذلك بمعرفة ما تقرأه من كتب أو ما نستمع إليه من موسيقى. يحرص على تتبع كل شيء ويحس بمسؤولية كبيرة في هذا المجال لأنه كان يرى أن حياته وحياتنا جميعا تقوم على العمل والدراسة والنزاهة. كان يصر على دراستنا لأنها الوسيلة الوحيدة التي تمنح المرأة قدرة على الاستقلالية والحرية التي تبني بها حياتها ومستقبل أبنائها. لقد عاش ابي يتيما منذ صغره وعانى كثيرا ويبدو أن أمه (جدتي) قد عاشت صعوبات كثيرة للاهتمام بخمسة أطفال. لم يحدثنا أبي عنها أبدا ولكننا نجد بعض الإشارات لذلك في رواياته.

إعادة بعث تفاصيل ذاك المناخ، السهرات الموسيقية وحفلات الزواج في الصيف، الخرجات العائلية على بعد كيلومترات قليلة باتجاه شلالات الأوريط حيث كانت تسمع أصوات النساء وهن يدفعن الأراجيح. أولى الأشياء التي جلبت انتباهي في كتاباته هي إشاراته إلى مرجعيات طفولته في تلمسان. لقد أهداني كتابه "تلمسان أو أمكنة الكتابة" وقد كتب: "إليك أسيا هذا الفُتات من الجنة الضائعة" والذي كان بمثابة الصدى لذكرياتي الخاصة حين كنت طفلة صغيرة بمدينة تلمسان، أرض أصولي أيضا، المدينة التي عشت بها حتى بلغت سن السابعة وما زلت أحتفظ بذكرى المنظر الداخلي الأول. يبدأ الكتاب بهذه الكلمات:

"في البدء كان المنظر الطبيعي الذي يجب أن يفهم على أنه الإطار الذي فيه يأتي الكائن إلى الحياة ثم إلى الوعي.

في النهاية أيضا.

ونفس الشيء فيما بينهما.

قبل أن يفتح الوعي عينيه على المنظر فإن علاقته به أصبحت مربوطة سالفا. إنه يكون قد توصل إلى الكثير من الاكتشافات التي تغذى عليها".

في روايات والدي يبقى المنظر "شاهدا على الأصول"- هذا تعبيره- دائما حاضرا في ذاكرة الشخصيات التي يمكن لجزيئة صغيرة أو ظرف ما أن يجعله يظهر من جديد. هذا ما يحدث للراوي في رواية "ثلوج رخامية" الذي يذهب على أعقابه إلى مدينة رينس، إلى تلك البقاع التي زارها سابقا رفقة ابنته الصغيرة "ليل"، بحثا عن الذكريات الجميلة التي عاشها معها. "أن تجد ليل من جديد. الحديقة. نعم، الحديقة أولا، على اليمين حين نخرج من الكاتدرائية.

في هذه اللحظة لم أصدق ما رأته عيناي. لاحظت عبر السياج بقع حبات التوت، بعضها ينفسخ وبعضها الآخر أبيض، فوق بساط حشيش الحديقة وجعلت منه سجادا شرقيا. استفاق الطفل الذي ينام بداخلي من نومه العميق، يعيدون براقتين، ووجد في الطرف الآخر من الأبدية طريقا مغبرا وهستيريا الشمس الهاتجة. كان يركض في ذاك السعير ولم يكن لوحده: كان رفقة ثلاثة أو أربعة أطفال مشاغبين، لك أن تسأل من يكون هؤلاء منذ ذاك الزمن. مشاغبون مثله. مثله أيضا يجرون باتجاه الأشجار الوحيدة المغروسة في الوهاد مثل قلوب من ظلال. أشجار شامخة يصلون تحت جذوعها ولكن لم يقصدوها من أجل ظلها فقط. لا يهمهم الظل أبدا. كانت أشجار توت. كانوا يعرفون ذلك. أشجار توت تتمدد للسماء، حين تكون تحتها. أشجار باسقة مثل الأشجار الموجودة في جنة آدم. كانوا يأتون من أجل ذلك. كانت الطريق مثل سرير من غبار مرشوش بنجوم من فاكهة حيث يختفي الأطفال المشاغبون الشطون. أتذكر أن الناس كانوا يقولون: "من أجل التوت سنموت ومن أجل حب الملوك سيقطع رأسك". كانوا يكررون هذا الكلام ويضحكون منه حتى العياء. كانوا يتمايلون من كثرة الضحك. كانوا ثلاثة أو أربعة عفاريت.

مثل ذاك المكان هناك، حيات التوت. أدخل الحديقة وبي رغبة واحدة هي أن أطعم "ليل" منها وتتذوقها. في نفس اليوم تلاقى طفولتان، طفولة "ليل" المنحدرة أو طفولتي التي تصعد نحوها...".

أعرف أن أبي تعرض لحادث في سن التاسعة وكان يعاني من إصابة بليغة في رجله كادت أن تودي بحياته. حدث ذلك قبل اختراع المضادات الحيوية. هناك حكاية مماثلة تربيها الشخصية المحورية في رواية "من يتذكر البحر". حين أقرأ هذا المقطع، أتخيل أبي طفلا محل الطفل الذي يحكي آلامه في حين تواسيه جدتي بحضورها المداوي.

"لا يغادرني الألم ليل نهار ويعذب الجهة اليسرى من جسدي ويشعل النار في رأسي. بهدف مراوغة هذا الألم، كنتُ أداعب قدمي بتأرجح لكامل جسمي وأطلق بعض الأنين الخافت دون توقف. عشت تلك الأيام في رعب من التواصل والانزعاج من كل حضور انساني وكل كلمة ترتفع بالقرب مني تضيّق على أنفاسي. إذا ما كنتُ سأنتهي، ألم يكن من الظلم أن يتم تحويل انتباهي لحظة عبوري هذه المرحلة العويصة؟

رغم ذلك كنت واعيا بالمدى الذي يمكن أن يكون

حضور أمي مفيدا، بقدرة صوتها الحنون، الرتيب بعض الشيء، على تخفيف وجعي خاصة عند مجيء الليل حين تقف بجانب سريري في ظلمة الأصيل. حين تأتي أمي من الغرف المضاءة فإنها تعيد إلي من جديد ساعات طويلة من السهر، كأنها تساعد المريض على مواجهة الليل. ما الذي لا أستطيع تحمله في سبيل إيجاد نفسي تحت هذا التأثير الصبور والحنون؟".

توجد الكثير من الأبعاد السيرة الذاتية في روايات والدي لكن الأحداث التي عاشها في الواقع تتداخل مع المتخيل الذي يقوم بتحويلها وإعادة تشكيلها إلى درجة تغيير ذكرياته ذاتها. لقد كتب مرة ملاحظة تحت عنوان "حول فعل الكتابة" يقول فيها: "السيرة الذاتية" لقد سبق وقت كتابتها. إنها كامل كتبي. تبقى فقط منقسمة وبها ثقوب سوداء كبيرة. منذ أن بدأت بتأليف الكتب، هناك شيء تجلى لي مع مرور الزمن أن العملية المستحيلة والملامتناهية هي أن يصبح الكاتب مؤلفا لحياته الخاصة. إنها عملية أكبر من لا متناهية، إنها عملية ميؤوس منها. هذا لم يكن لينطبق عليّ لأنني لم يراودني أبدا هذا الطموح الكبير والمجنون بالتأكيد. لا، أريد فقط أن أقول: أنا أتواجد داخل كل كتبي في مراحل مختلفة من حياتي في علاقة مع الأحداث التي حسب رأيي ميزت تلك المراحل ولكن كل تلك الكتب مجتمعة ليست هي حياتي أبدا. لم أجد أهمية أبدا لكتابة السيرة الذاتية بعينها. واليوم، بعد أن ألفت كتبي فإن هذه العملية مُنوعة على بقاء الأشكال بسبب أن الكثير من العناصر الشخصية التي دخلت في تراكيب كتاباتي قد غيّرت الأحداث الحقيقية وتمكنت من محوها من ذاكرتي ولم يرجع اليوم إلي سوى التعبير الكتابي وهذه ثقوب أخرى لا تقل سوادا. إنه من المستحيل علي مثلا أن أتذكر بعض الأحداث التي عشتها دون أن يأتي كي يتدخل ما كتبته عنها ويعترض ويغطيها ويغلق علي سبيل الدخول إليها للأبد".

أما بالنسبة إلي كبنت له فإنه يكتني القول، وهذا أبعد من الاهتمام الأدبي، فإن قراءة كتب والدي أصبحت بمثابة رحلة بحث وهذا من خلال المقاطع المؤثرة التي بدا لي أنه يتحدث عن نفسه حين كان صغيرا وهذا على لسان الراوي. بدأت أبحث في محاولة التعرف أكثر على "أماكن الطفولة" التي بنى ذاته من خلالها وهذا بهدف فهمه كأب من جهة ورجل من جهة أخرى.

مع هذا يبقى السر قائما لأنه في نهاية المطاف فإن الكتابة هي التي تفود. هذا ما كتبته الرجل في أحد المخطوطات: "إن الأحداث في الرواية لا تأتي بفضل الكاتب بل بفضل الكتابة ولكن في نفس الوقت كأن الحياة قد اختبرها بذلك فتأتي كي تدخل الحكاية وهذا وحده كافيا لتبريرها.

الكتابة باستمرار من القريب إلى القريب مع وضع الثقة في الذاكرة في ذاك الذي مضى من أجل الذي يأتي ويتبع".

الشاعر بيار مارسيل مونتموري

ذكريـــاتي مع محمد ديب مسرحيـــا

ترجمة وتقديم: عبد السلام يخلف

بيار مارسال مونتموري Pierre Marcel Montmory شاعر وممثل وموسيقي فرنسي مولود ببارس عام 1954 يقيم بكندا، ينشر أشعاره منذ سبعينيات القرن الماضي وينشط في وسائل التواصل الاجتماعي وفي يوتيوب وحاصل على الكثير من الشهادات والجوائز العالمية آخرها الحصول على المرتبة الثالثة في جائزة توماس سانكارا للشعر في 2020. يقول في فلسفته الشعرية مخاطبا ذاته: «أيها الشاعر! أنت تصغي إليّ وأنا أجلسُ بالقرب منك في ضوء اللهب وأتكلمُ وكأني أثبت وجودَك لي لأن حزني هائلٌ ويهدّدُ بغرقي في البُعد أكثر. في نهاية أنفاسي، هل سيوجد هناك فرح؟ نعم، أنت تقول لي نعم، نعم، في نهاية القصيدة ستكون قد أنشأتَ كونا حيث تذهبُ الدول الأجنبية معًا لتصنعَ أرضًا للمنفى لأولئكَ الذين فشلوا في الصمت المطلق للحداثة بينما سينهض الشعراءُ بعدما جنحتْ سفينتُهم، بعد أن يكونَ شعورُهم قد هاجر إلى قصيدتهم. يشعل المكتشفُ غليونَ الحشيش ليختبئَ خلف ستار الدخان في قرنه. قرنُه الذي عَبَرته الأضواء التي لا تلمع سوى على نجوم الأبطال المستحقين. ليلة بيضاء إلى الأبد حيث يحافظ الحارس - الشاعر على نار الصداقة مشتعلة، النار التي حوْلها يتم تشارك الماء والخبز والثوب والنوم».

Gavroche et Chiffon dans le jardin de Colette et Mohammed Dib, en 1992, après avoir joué « La danse du roi »

لقد نشأت في عائلة كبيرة من فناني وتقنيي المسرح، تلقيت تعليمي على يد أولئك الذين أنشأوا المسرح الوطني الشعبي ودور الثقافة ومراكز الدراما. قدمت أول عرض لي عام 1964. ومنذ سنة 1970 وأنا أكسب رزقي كفنان مستقل من خلال القيام بعمل الإدارة الفنية واللوحات الزيتية والصور والأشعار وعروض التمثيل والرقص والعروض الصامتة ومغني موسيقي مع شركتي المسرحية الخاصة. نشرت كتيبا صغيرا عنوانه «مسرح محمد ديب» أحكي فيه مغامرتي مع هذا الرجل العظيم.

الحديث عن محمد ديب هو 25 سنة من مغامرة مسرحية وموسيقية.

المرة الأولى التي سمعت فيها عن محمد ديب كانت من خلال أصوات ممثلي رافائيل رودريغيز الذين أعدوا انطلاقا لقراءة مسرحية «ألف مرحى لمومس» في القاعة وهذا في أكبر مهرجان مسرحي في العالم وهو مهرجان أفينيون عام 1977. خلال العرض عمّ القاعة صمت غريب يابس تقريبا يقترب من المعادة صادر عن الجمهور. لثوان ساعات ونصف لم يطلع صوت واحد لكن هناك وجود بشري منكمش. فكرت على الفور أن «هذه المسرحية لها تأثير القنبلة» وكنت الحاضر الوحيد الذي صفق في قاعة تسع مائتين وخمسين مقعدا. غادر الناس في صمت، حتى من دون التصفيق على الممثلين وخاصة الممثلة الرائعة «بيا كولومبو» التي لعبت دور «عرفية» الرئيسي.

عندما أنهيت قراءتي الأولى للمقاطع الخمسة لمسرحية «ألف مرحى لمومس» محاولا القيام بقراءة أولية، وجدت ذهني وقد دخل عالما دائريا. كانت «الحلقة» بحيث المكان يقيد العمل بالإيماءة وبواسطة الصوت. لكن أيـن الوجود؟ « من نحن؟ «. عاد السؤال يطاردني ولم يكن يحدد نوعا من مشكلة الهوية. بدلا من ذلك، كان ردا على «العدوان» و«المنفى» و « الضياع». قلت في نفسي:«عليك أن تعض على أسنانك» و«التكيف مع الوضع. مهما تكن التكاليف سنصنع أدواتنا الخاصة من الأجساد والأصوات. من الممثلين المحنكين القادرين على لعب هذه الكوميديا الإنسانية العميقة. هذا عمل محمد ديب وأنا مستعد لأمثله طوال حياتي.

كنت دوما أرى أن أجمل المسارح هي الساحات العامة. لقد كسبت رزقي لفترة طويلة بالتنقل من مكان لآخر ولعب هذه الشهرزادات. لقد مثلت أعمال محمد ديب أمام الآلاف والآلاف من المتفرجين وذلك يتطلب صفات بشرية وفنية كبيرة من محترفين استثنائيين. شخصيا، لم أختر قط أن أكون فنانا. أنت لا تصبح فنانا. أنا مكتشف. أنا أجد. تأتي الكلمة من جذر لغوي هندي أوروبي: «تروبار» التي تعني «ذاك الذي يجد». من نفس الجذر هناك المكتشفون (شمال فرنسا) والتروبادور (جنوب فرنسا). بالفرنسية الحديثة: أنا مكتشف.

اللعب في الهواء الطلق هو أداء بدني وصوتي حقيقي بحيث يتطلب ذلك تحضيرا كبيرا قبل مواجهة الخارج لجذب انتباه الكثيرين، المئات من الناس الذين سوف يدورون حولك والاستماع إلى لغة محمد ديب المشاغبة التي تعلو مع أصوات الممثلين من خلال أقنعة المسرح.

عمليا، إن الموسيقى حاضرة باستمرار ويتم الاشتغال على صوت الشخصيات وفقًا لوقع الموسيقى حتى أنه يمكننا القول أن الممثل يغني طوال الوقت. الإيماءات دقيقة ومصممة. يجب أن تعرف أننا نلعب دائمًا باللغة الفرنسية ، ولكن غالبًا ما نلعب أمام جمهور، وعندما يكون هناك الكثير من الناس فمن الواضح أن هناك مجموعة لا تفهم ما يقال من كلمات. ولكن لماذا يبقى هذا الجمهور المتفرج ؟ بسبب العمل في المسرح الذي يتجاوز الكلمات لأن ذلك ليس أدبا، هو نتيجة الكلمات المكتوبة وليس لديك سوى أن تتسلط بالخط والكلمات والمقاطع والحروف. رموز مكتوبة يكون قد صاغها الكاتب المسرحي.

الحياة ليس لها معنى، نحن الذين نصر على منحها ذلك. اذهب وحاول أن تجد معنى لهذه المسرحية لمحمد ديب! ستجد أنه من المستحيل، لأنك ترکض خلف المعنى لكنك ستفهم بسرعة أنه من الأفضل أن تترك جميع حواسك تتمتع بما تراه وتسمعه في هو الدرس الذي تعلمته من الأحداث والوضع في تلك اللحظة بالذات في الجزائر أي السنوات الأولى من الاستقلال.

التقيت محمد ديب عندما قرأت لأول مرة عمله. أردت أن أعرض مسرحيته «ألف مرحى لمومس». كان ذاك النص أول دليل على ما كنت أبحث عنه. طريقة جديدة للرؤية والتفكير في المسرح. مع الفكرة القديمة «للحلقة» فجأة كان بحوزتي جهاز أساسي غير قابل للتدمير لأنه يقوم على المبادئ الأساسية للحياة. في الوسط يوجد الشاعر وحول الدائرة هناك الجمهور، بحيث أن كل فرد يمثل نقطة من الدائرة. كل النقاط هي وجهات نظر مختلفة، قراءة مفتوحة لعمل يقوم فيه الممثل بدور الوسيط».

مقابلة مع محمد ديب بخصوص «قصة الملك»

سؤال: أخبرنا عن سياق روايتك «قصة الملك» التي أخذت منها مسرحية « ألف مرحى لمومس»؟ أخبرنا كيف يهمنا ذلك في عملية التمثيل؟

محمد ديب: بادئ ذي بدء، لا يمكنك القول أنني استخرجت مسرحية «ألف مرحى لمومس» من رواية «قصة الملك». قد يمكنك القول كذلك أنني أخذت الرواية من تلك المسرحية وهذا يعني أنني قمت بتأليفها عمليا في نفس الوقت ولكن في شكلين مختلفين فقط. إنه نفس الموضوع ونفس الأطروحات التي وردت في الرواية تتم ترجمتها أكثر دقة في النموذج المسرحي مما أدى إلى ولادة «قصة الملك» أي أنني في نفس الوقت رأيت المسرحية تتشكل لوحدها. هذا من أجل تحديد مواقع الأشياء فقط.

بالمناسبة، السياق هو نفسه، بحيث ظهر الكتاب في 1968 وكنت كتبته بعد السنة الأولى لاستقلال الجزائر، إذ تم تقديم هذا الاستقلال رسميا على أنه ثورة. ملاحظاتي للوضع في تلك اللحظة والتفكير الذي تمكنت من القيام به حول المرحلة، قادني الوضع إلى التفكير أن ما يحدث كان ثورة فاشلة. وتكملة لما زال يحدث اليوم فإنه يثبت أنها كانت كذلك. هذا هو الدرس الذي تعلمته من الأحداث والوضع في تلك اللحظة بالذات في الجزائر أي السنوات الأولى من الاستقلال.

كيف يمكن لهذا أن يعني بعض الأشخاص الآخرين وما هي الأشياء بالضبط التي قد تهمهم؟ الواقع أن هناك دروس تهم بشكل عام الكثير من الناس فيما يتعلق بحقيقة أو واقع محدد، محلي، إلخ. قد يمس المعنى الناتج من ذلك الوضع أشخاصا غير الأشخاص المعنيين في أول الأمر، وهذا الشعور هو الذي يمكننا من القول أنه يهمك أيضا ويهم الآخرين ويهمني أنا أيضا.

مسرحية رقصة الملك

«رقصة الملك» هو تركيب مسرحي مأخوذ من رواية «رقصة الملك» ومسرحية «ألف مرحى لمومس» لمحمد ديب. أنا لست جزائريا ولم أزر الجزائر قط. كنت مهتمًا (1988-2000) بإعادة تفسير تلك الشهرزاد من خلال شخصيات فرنسية نموذجية مثل «غافروش» الذي تخيلت له تكملة لمحاكية «البؤساء»؛ لم يمت غافروش بشارع رامبوتو في الحاجز بباريس بل هو نائم فقط. يستيقظ غافروش اليوم ويلتقي بشقيقته في البؤس: شيفون (المولود في الثمانينيات).

يحدث عملنا بين القرنين 18 و 20. غافروش شخصية «مسيسة»، متبجح، قاسي وحزين، مريض في حين أن «شيفون» تعتبر لغزا: ما سر بهجة الحياة لديها؟ غافروش «الروح العظيمة « يؤدي دور باباتاغ في المشهد الثاني من «ألف مرحى لمومس» حيث تتدخل شهرزاد بطريقة كوميدية، كما يؤدي دور «سليم» في المشهد الثالث، حيث تتدخل شهرزاد بطريقة مأساوية.

«شيفون» تلعب دور عرفية، تقلد عرفية وتقوم بتدوير الأحداث. يقول غافروش أنه لقيط أيضًا وهو جاهز للثورة، يقول: «نحن الفرنسيون اخترعنا الثورة لكننا لم نقم بها بعد».

غافروش وشيفون هما شخصيتان من الكوميديا الفرنسية الحديثة وجدتا لهما طريقا في حكايات محمد ديب: هناك، هنا، الآن، في الأفق. القراءة مزيج من وجهتي نظرنا حول التاريخ الحقيقي والتاريخ المكتوب (الخرافة)؛ التاريخ الاجتماعي للشخصيات البروليتارية. من سر الإيمان / وفرح العيش، من عرفية/ شيفون التي تتلاعب بكل الرجال في دور المرأة/الحياة.

للحصول على التماسك في هذا الاضطراب الكامل في الرغبات، حرصنا على استخدام المسرح كمشهد كلي. اللعب، أغنية الالتفاتة، الصرخات الغامضة، الرقص، باتوتيميم من أجل الوصول للتعقيد الكلي لآلة المسرح الفاعل. بطريقتهم الخاصة وحسب نوعهم (طابع الشخصية)، يقوم الممثلون بدور الرواة، بحيث يدمجون في اللعبة بعض صور الوقت الحاضر للحيّاة في تنقلاتها. يعيدنا هنا نص محمد ديب إلى واقع أعمق يحرك الظلال الحارسة للذاكرة. (نسخة 1988).

تعليق محمد ديب على نص المسرحية

«أقول بشكل عام أن غافروش وشيفون قد حصلا على أفضل النتائج لممثلين اثنين فقط (مما يتطلب عددا محدودا من الممثلين لهذه المسرحية)، وحصلا على أقصى ما يمكن الاستفادة منه في هذه الحالة. إنه طريقة لأخذ الأحسن فيما يخدم كلا من المسرحية والممثلين. رأيت كيف فهم غافروش وشيفون كل ذلك ولا يمكنني أن أكون سوى راض عن النتيجة بحقيقة أنها ليست نتاج إخراج مسرحي وتمثيل تقليديين لأن ذلك يتخطى الطرق المعروفة وقبل كل شيء، بالنظر إلى هذه المرحلة وطريقة التمثيل، فإن غافروش وشيفون لديهما قدرة كبيرة للعب في الساحة العامة. إن هذا يعطي تعبيرًا مفتوحًا عن المسرحية. هذا رأيي».

مقتطف من رسالة من محمد ديب إلى بيار مونتموري

«يا لك من مؤلف مذهل ... تنفجر مسرحياتك في كل الاتجاهات وهذه هي الطريقة التي يجب- حسب رأيي- أن يقدم بها المسرح. أنا لست كاتب مسرحية ولست بالقاضي الجيد في هذه المسألة ومع ذلك يبدو لي بالفعل أن ساحة المسرح ليست المكان الذي تقدم فيه الموسيقى الكلاسيكية، موسيقى الهمس، ولكنه مكان حيث يجب الصراخ، وهذا يحدث لأن المسرح يتطلب منك بالضرورة إعطاء الأشياء بُعدًا إضافيًا وكل هذا أعتقد أنه متوفر في مسرحياتك، يضاف إليه ذلك الجنون الذي لن أتردد في تسميته «شكسبيري»؛ هذا النوع من الجنون،وأنت تعرف بالتأكيد ما أعنيه، من أقصى حدود الاغراء ولكنه إغواء لا نعرف له مصدرا؛ إن لم يكن هكذا فقط. هذا هو المؤلف وهو يرى الأشياء بتلك الطريقة ... أنت مبدع حقيقي».

هذا الكلام خصه كاتب ياسين مرة حين قال لي: «هذا بالذات هو ما يجب أن نقوم به».

مني لمحمد ديب الكاتب الكبير

لقد ولدنا أنا وهو وسنموت فوق نفس الأرض: المنفى. واحد مستقر مثل شجرة غيورة على منبعها العميق والآخر يجر خلفه بلاده/أرض المنفى في حذاء مسحور لشرور غريبة، دوار الحركة على كوكب المنفيين. لقد فقدت شريكا جيدا لكنه ترك لي عمله وأنا الآن هنا مرة أخرى ودائما لجعله يعيش في الدائرة السحرية. قمت بتأليف الموسيقى للأغاني التالية المكتوبة من قبل محمد ديب. أقول لنفسي: «بيار، لقد وجدت الموسيقى الأكثر مناسبة لك». كانت في عيون ديب دموع الفرح وهو يسمع الغناء: نصوص هي مقاطع مأخوذة من رواية الدار الكبيرة، أومنيروس، وموسيقى رواية رقصة الملك.

آخر الكلمات

رسالة إلى محمد ديب في 2017 وهو هناك عزيزي محمد ديب

أفتقدك كثيراً ومنذ رحيلك أصبحت وحدي أكثر فأكثر. أدركني المرض بعد كل هذه السنوات من العطاء الأكثر مني. أود أن أطرح عليك بعض الأسئلة لأنني أعلم أن إجاباتك ستمنحني دائمًا المزيد من القوة حتى وإن كان عليّ أن أضم أسناني لابتلاعها. كما تنبأت لي فقد حدثت أشياء لا يمكننا تخيلها أبدا.

مع مسرحك - الذي كنت الوحيد الذي أمثله كثيرًا ولمدة 25 عامًا تقريبًا في جميع ساحات حيانا الذي هو الأرض كاملة، كما هو الحال مع مسرحياتي وموسيقاي وأغاني، أنا هنا على الأرض في شرفة تحت الرصيف. ما أدهشني هو أنني ما زلت أغني وكأن شيئا لم يكن، لا مبال مثل العندليب - الذي يبدو متجاهلا لمسألة أنه مهدد بالانقراض لأن البشر يفضلون المال على الحياة. ربما كنتَ على حق في المغادرة. بعد كل شيء، للموتى حججهم في التغيب لأن هناك المزيد والمزيد منهم. لكن الغائبين أقل عددًا من المفلسين في الحياة، التافهين، الذين صورتهم جيدًا في «رقصة الملك». يبدو أن الملك يرفض التنازل عن العرش لأنه معتد للغاية بنفسه ومثابر جدًا في انحرافه.

الوحيدون المتيقون هم إخواننا وأخواتنا الذين يستمرون في التحدث عن الحب خلال فترة المنفى الدنيوي. معهم أطير فوق حواجز الثقافات وتجمع الديدان لنصيد رغباتنا في المياه الصافية. تثير الألحان المغرية حناننا الهادئ في الصراع الشرس بين الضوء والظل.

يا محمد ديب يا صديقي! أستعيد الآن صفاتي بعد أن أخبرتك بما يحدث لي.

بيير مارسيل مونتموري عام 2017

موقع الشاعر:

/http://www.poesielavie.com

على هامش ترجمة "سيمورغ" لمحمد ديب

انعكاسات لحياة تشبه الوشم

عندما زرت في 9 أوت 2007 لأول مرة - والأخيرة في هذا الشأن – ذاك القبر، المرقد البارد لمحمد ديب في الضاحية الباريسية في «لا سيل سان كلو» ورأيت الرخام الرمادي الذي يحمل النقش السحري المذهب لكلمات ثلاثة: «L'arbre à dires» ، والتي لم تكن سوى عنوان إحدى رواياته «شجرة الكلام»، تمكنت من إدراك الأبعاد الخرافية التي لا حد لها و لا سقف للمأساة التي عاشها الرجل بكل تفاصيلها وآلامها المادية والروحية. وحده «يستريح» تماما مثل مالك حداد الذي قرر ألا يموت. وحده واجه شرور النقد الأدبي والعنصرية العلنية والمندسة وقسوة وطنه الأم وجحود مواطنيه. وحده في مقبرة مسيحية نائية، ينام بعيدًا عن «الدار الكبيرة» ليس التي حدثنا عن سكانها وألمهم وتعبهم ومعاناتهم تحت سياط الاستعمار ورشاشات عسكره، بل عن دار كبيرة أخرى في تلمسان كان قد التقط لها بعض الصور بآلة الروليفليكس ثم أغمض عينيه وأخذ باقي الصور الذكريات، ببهائها الذي كان يحلم به. وحده في كفنه يراقبنا. لم يكن خائفا أبدا من مرور الوقت.. أبدا.

عبد السلام يخلف

لغة ديب شبه جسدية وأرضيّة مليئة بالثقافة و التعابير الجزائرية جسدية

كان الرجل - كم محزن أن نتحدث عن محمد ديب بفعل الماضي - هذه الشجرة الحكيمة الأصلية الوارفة الحكمة والتجلي، مصدر الكلمات الجميلة الملخصة في «سيمورغ» (السمرغ) الذي هو كتاب ساحر، ليس رواية ولا مجموعة قصصية ولا حتى أشعار أيضًا. هل يجب أن يتواجد في قائمة ما كي يكون؟ في تصنيف معين جاهز للقراءة والتصرف؟ إنه كتاب/ صرخة يقدمه لقرائه وأصدقائه الافتراضيين الذين يغذون نسغ الكتابة عن طريق شراء الكتب ونبش تفاصيلها والبحث بين جنباتها عن حكمة نائمة أو جملة متأهبة للغرس تماما مثل حبات القمح. يهديه لقرائه فقط لأنه يعرف التقلبات في الحياة وألعابها البهلوانية ولا يثق في الاعتراف على أيدي النقاد أو «مانحي» الجوائز لأن هداياهم دومًا مسمومة. (السم في العسل كما يقول المثل العربي).

ديب لا يتعامل أبدا بنمطيّة مع قضايا العصر كالعولمة والهوية والهجرة والتعصب

لقد تم نشر «سيمورغ» قبل عدة أشهر من وفاة محمد ديب، وكاد أن يكون مفاجأة، وصية مرسومة بشكل فسيفسائي. وصية ثمينة تحفظ على جدار متحف الإنسان، ليس ذاك الذي يحوي الجماجم والهياكل العظمية بل متحف البشرية الذي يحتوي الرأي والمقولة والتضحية والسلام والتحية والعبقرية والمجهود والتعب والدليل والحكمة ، الذي يحمل فكرة محمد ديب ويتحدث بلغة العلماء ومعرفة النبلاء الذين يشعلون الفوانيس نكاية في الظلمة والطغيان والهباء والتنكيل بأحاسيس الإنسان وقدرته على التحليق.

إن هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من النصوص التي لم تجد لها مكانا في رواياته السابقة. بقيت القصاصات (مثل «المجتزءات الخمس للصحراء» لرشيد بوجدة) في درج ينتظر مرور مزاج مبتهج أو قرار الأصابع الرشيقة والهشة في آن لرجل يجلس في زاوية صغيرة من شقته الضيقة ويحيلها إلى كومة من الورق تتلوى في كل الاتجاهات ثم تعيد صياغة العالم في شكل صياغات مذهبة تسرّح الفوانيس وتحكي الحكايات لعابري السبل الوعرة كي لا تتأذى جوارحهم وهم يعبرون جهنم. العالم في «سيمورغ» أخطر من جهنم لكن القناعة لا تفشل أبدا ولا تترك الرجل وحيدا في مسيرته هو الذي يعرف أنه «يجب على المرء ألا يشرع في مغامرة الكتابة الخطيرة جدا إلا مع القناعة الراسخة والضمير النقي بأنه يحمل أشياء معينة بداخله وهو الشخص الوحيد الذي يعرف ويستطيع نقلها للآخرين» (ص 86).

يبدأ الكتاب بنص يحمل عنوان «سيمورغ» وهو في نهاية الفلسفة والتجلي اسم لذاك الطائر الأسطوري والصوفي الذي يحمل اسمًا فارسيًا يعني «ثلاثين طائرًا». إنه يمثل الحلم النهائي للطيور وملكها الأبدي. تسافر الطيور في مغامرة لا تنتهي أو قد تنتهي بما لا تبتغيه أو قد لا تعرف أصلا ما تبتغيه. يقول: « كان يمضي، كان يمضي. هناك في العلوّ. ليس على ارتفاع كبير... ما أحقرها هاته الشمس. لم يكف الظل عن التمدد على الأرض، لم يمّر، و ما لبث يتمدد على الأرض. يأتي الليل في منتصف النهار أو كذا. إنها ليست نكتة. هو شيء يشبه تماما حظر التجوّل لأنك كي تتقدم أو تتحرك فلا تحرّك و لا تقدّم هناك. ما زال النهرُ يركض و الماء دومًا هنا يراوح مكانه. كان يمضي و يمضي.». تكمن قوة هذا الكتاب في قدرته على اختراق شغاف النفس البشرية وحدودها وجعلها تقف هادئة راضية مقتنعة مرغمة ترى نفسها في المرآة. انعكاس عميق لدورة الأحداث المتتالية التي تسكن رحلة البشر وتغيّر مساراتها وأقدارها كونها مأهولة بثلاثي المنفى والألم والبحث. البحث عن معنى الحياة والموت. البحث بينهما من طرف روح تائهة جوالة مغرر بها، تتعرض للنهب والتنكيل وتزدهر في الأفق بانتظار المصير والعذوبة القادمة.

يأخذنا محمد ديب من نص إلى آخر، من بلد إلى آخر، من جحيم إلى آخر، من الخارج إلى الداخل دوما أعمق نحو مصائر مجهولة ووجهات غير محتملة. بصبر كبير ولغة أنيقة واعدة ومضطربة حازمة يقول «أشياء» بحذر لكن دون أي تردد ودون الخوف من إبلاغ أيا كان مسبقا. لا يدين لأحد بشيء هو له ولا يهاب الارتطام بعرافي الباطل ومالكي مفاتيح الهزائم لذا فهو لا يمل التكرار كي يفهم الجميع. التكرار في أسلوبه خيار واع مع سبق الإصرار والترصد. من أجل التأكيد والتوكيد والشرح والتدليل والتعليل كي يزيل ذعر القراءة وخوف الاقتراب من نصوصه أو ربما بعض تلك المواساة والتعزية لمن رأى في نصوصه والتكرار غمامة تحجب الوصول إلى الفاكهة. الخسران لهم.

هذا الكتاب هو حديقة رائعة. مساحة أنشأها محمد ديب حيث يتحرك بخفة وأناقة، مثل الظل الشفيف، بين الماضي والحاضر، بين الثقافات المختلفة للشرق والغرب، بين الأفراد والمواضيع العالمية الأخرى باستخدام الخطاب الشفاف، الماهر، الموهوب، القاتل دون حد مثل تلك الشجرة التي تخفي الغابة، تتكاثر الأسطورة وتمضي في مغامرتها وتتخذ دائمًا شكلًا صافيا وشيطانيًا في نفس الوقت. يبدأ الكتاب بهذا الطائر الذي يجمع في ذاته أفضل صفات من يجانسه. يتغذى على العطور ولا يملك عشا وتطول حياته لأكثر من قرن. يعيش في آفاق يتعذر الوصول إليها لأنه مختلف عن جميع أنواع المخلوقات وسلالات الطير ويطمع فيها الجميع ويتطلع للانتماء إليها واكتساب نبلها. إنها حلمنا جميعا. ألذ خرافاتنا وأعذبها. ينتهي الكتاب بأسطورة أخرى هي أسطورة أوديب التي تسمى «أسطورة الغرب» في حين أنها جزء من تراث الشرق، مثل المسيحية تماما، ولدت هنا وكبرت ونبتت لها أسنان حليبية. تم اختراقها وسرقتها وإعادة تشكيل هندامها لتناسب القالب الأيديولوجي لصراع الحضارات وتصبح جزءًا من تراث قارة أخرى، أوروبا التي لم تشهد ولادتها هناك بعيدا في الجغرافيا وفي التاريخ. يقول: «وفيا لعاداته الاستبدادية دائما، استولى الغرب على التراث اليوناني وفسره وفقًا لآرائه وفي النهاية جعله شيئًا خاصًا به». أصبح يسوع بفضل المؤامرة والكذب والتجني على التاريخ وإعادة كتابة الأحداث بالأشكال التي يبتغونها، أصفر الشعر وأزرق العينين. أوديب جردوه من ثيابه الأصلية وأدخلوه كتبهم الفلسفية من خلال «المركزية الأوروبية» وجعل كل ما يحدث خارج هذه الدائرة مجرد فلكلور لا يعتد به لكنهم لم يتمكنوا من القفز على بعض «العراقيل المعرفية» الضخمة فصاغوها بشكل يجعلها تبدو أوروبية حتى ولم تكن كذلك. مرة أخرى أعاد محمد ديب صياغة النقاش بفضل أدواته اللغوية الخاصة لذلك تأخذ الترجمة مسارًا مستحيلا وتحاول معالجة المعنى بحذر وبكثير من الاحتياطات التي مهما كثرت لن تكون كافية أبدا. تكمن الصعوبة في أن لغة محمد ديب شبه جسدية وأرضية، مليئة بالثقافة والتعابير والعبارات الجزائرية. لغته تسكن الأرض ولا تتخلى عنها. كأن لغته منحوتة من طين مدينة تلمسان لذا فهو كاتب لا يمكن نسخه أو ترجمته بسبب تلك اللغة التي تقول أشياءها على الفور بأناقة وتكرار وتجمل وبهاء وحكمة وتلخيص وإطالة وإشارة ونشاط وبساطة وتعقيد وتلميح وغواية وخفة وسلاسة ثم تنسحب بهدوء، غير مرئية، غير مبالية بالذي يحدث.

بصفته أستاذ سابق في جامعات العالم، يتعامل محمد ديب مع الموضوعات التي تهم الجميع في عالم اليوم مثل العولمة والتعصب والهجرة والهوية والعلاقات الدولية. بخطاب أدبي وأسلوب راق تضعه قوته الجوهرية في مكان مرتفع للغاية يتجاوز الصيغ النمطية ويجعل القارئ في حيرة من أمره وهو يرى بعد مرحلة من العبث والبحث عن الكلمات في القاموس أن محمد ديب ساحر جزائري أخذ طلاسم لغته من براري تلمسان وأحراش جبالها. تحاول الكلمة دائمًا إحباط الطريقة. حين يقول شيئا فإنه دوما يريد أن يقول شيئا آخر. هذه اللغة تمثل هوية محمد ديب المعقدة، كيانه المجروح، ذاته المتفردة، أناه المتوثب، روحه المعذبة، هدية الآلهة. هديته لنا كي يقدمنا إلى سبل الابتهال.

الأوروبيون جردوا أوديب من ثيابه وأدخلوه كتبهم الفلسفية

كما تعامل محمد ديب في هذا الكتاب مع الموضوعات الشخصية والسعادة والعقبات أو مناطق الظل بكثير من الحب والهشاشة والحنين والرقة كما لو كان يشكر الأشخاص الذين كانوا في الأصل والسبب النهائي لهذه الحقائق. كان يشكر ويحيّي الموسيقيين والفنانين والشعراء. لقد تحدث عن هؤلاء الناس بقدر كبير من الإعجاب لذا حاولت بحذر وحماس كبيرين توصيل ذلك لقراء اللغة العربية. لأن محمد ديب رجل جوال في المعنى، قلق في الجمود، فإن أسلوبه لا يمكن إلا أن يكون شاعريًا وملمحًا باختصارات ولدت مع اللغة الفرنسية التي يصفها بأنها «اللغة الأرستقراطية التي لم تستطع أبدًا أن تقول بؤس الجزائريين». هذا هو السبب الذي دفعه إلى صنع لغة على مقاسه، بحجم آلامه، هو الذي يقول أن الفرنسيين يقومون بترتيب الكتاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية كما يلي: في المرتبة الأولى يأتي الفرنسيون وفي المرتبة الثانية كتاب الفرنسية من أوروبا وأمريكا وفي المرتبة الثالثة «الخادمات البرتغاليات» وفي المرتبة الرابعة كتاب الفرنسية من شمال إفريقيا. يقول محمد ديب العظيم: «أحلم بأن أصعد إلى مرتبة «الخادمة البرتغالية» لدى نقاد

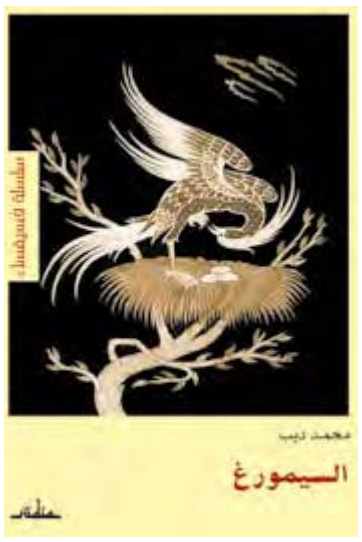

الأدب الفرنسيين». هو الذي يُوصف دائمًا بأنه «من الأهالي» (لانديجان) عندما يحاول التعامل مع الفرنسية لغة جيرار دي نيرفال (معذرة للعزيز فولتير!).

الغرب سرق يسوع وجعل شعره أشقر وعينيه زرقاوين

في نص (منى)، يقرر إرهابي العودة ليأخذ معه الطفلة التي قتل عائلتها كلها: مع ذلك يريد أن ينساه. في الصحراء، أثناء الترحال وفرارًا من عاصفة رملية، نسيت امرأة طفلها خلفها ومع ذلك، لم ترغب في نسيانه (نص – حزن مدن الأشباح). أو مرة أخرى، يحاول «كناس» أفريقي نسيان قريته الأصلية ودفنها في أعماقه من خلال تنظيف شارع في باريس لكن زائرة مثله، محاصرة في تلك المساحة الصغيرة، تجلب له روح البلاد وأنفاس قارة بأكملها ومع ذلك فقد أراد نسيانها (نص - الزائرة الضائعة). لتلخيص كل هذه الأبعاد، «لا شيء غريب بالنسبة لي» يقول المؤلف.

يثور محمد ديب ضد الأمريكيين بسبب استغلالهم لثروات الأرض وإهمالهم لحقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم. يثور ضد نقاد الأدب الفرنسيين بسبب ارتباطهم السري برؤية استعمارية لم يتمكنوا من التخلص منها والذهاب إلى مساحات خالية من التاريخ العنصري لبلادهم. يثور ضد الأصوليين الإسلاميين ليس بسبب الدين الحنيف في ذاته بل لاستخدامهم الإسلام في غايات مشينة ذات بشاعة بدون حدود. يثور محمد ديب باستمرار دون أي هدوء. دون توقف ولا يهدي لأحد لعبة أو قوس قزح. يثور كي يقول الذي يهترئ ويجب فضحه دون تكتم بشع أو قناع خائن أثيم. لدى محمد ديب حكمة البركان.

المعضلة الكلاسيكية التي تطاردني كمترجم هي حل معادلة الاختيار: إما ترجمة كلمات محمد ديب بالكامل كما جاءت على لسانه وقلمه ولكن بدقة كبيرة أو تحرير نفسي قليلاً من النص المصدر ومنح الكلمات والجمل أجنحة لتحلق بها و مكونات وبهارات وتراكيب لغوية خاصة باللغة العربية. أعتقد أن أهم شيء في هذه الترجمة هو مسؤولية فهم نص محمد ديب الأصلي الذي تحدث فيه بكل صراحة وألم عن فقره وقلقه وصفائه الروحي.

من الضروري أيضًا أن أقول حقيقة مهمة وهي أنني تجنبت ترجمة نص بعنوان « طائر الفينيق الكسول في ستة عشر موقفًا» والذي هو عبارة عن جملة من المواقف المستندة إلى التوريات والأصوات والاستعارات التي يستحيل فهمها خارج سياقاتها داخل اللغة الفرنسية. ستكون ترجمتها إلى اللغة العربية ممارسة لا طائل من ورائها وتمس سمعة محمد ديب الذي اختار لنفسه رفاهية الاحتفاظ في بعض زوايا هذا الكتاب بمناطق حميمة منح فيها لنفسه الحق في ممارسة جنونه وتحقيق معجزاته في نغمة الكتابة وأناقة الأسلوب.

سيمورغ مخطوط الحكمة البشرية

من يستطيع القيام بعمل أفضل مما قام به محمد ديب؟ أن يكتب نصا من عشر صفحات تحتوي فقراته الست على جمل طويلة من صفحتين لكل منها. لا توجد نقطة في المنتصف. هناك نقطة أخيرة فقط. (نص- الطفولة غير المؤكدة). يفعل ذلك لإنقاذ الذاكرة والتحدث عن الزمن الذي كان ممنوعا عن الجزائريين تحدث وكتابة لغتهم الأم.

من خلال ترجمة هذا الكتاب كان لي الشرف الكبير والسعادة الغامرة لإعطاء محمد ديب الفرصة لقول «أشياء معينة» باللغة العربية للقارئ غير المحتمل، لمنحه الفرصة التي حلم بها كثيرًا للتعبير عن حكمته لأن «سيمورغ» هو مخطوط للحكمة البشرية، للفلسفة الشائكة التي تتدفق وتنساب ثم تختفي لأن الكاتب يستولي عليها في رحلتها الكاملة وهي محلقة في الفضاء ويحولها باستخدام الواقعية والسريالية والرمزية والصوفية و أنماط أخرى كثيرة ليس من أجل تحويل الحياة ولكن من خلال الدوران داخل إيقاعها.

لا يحمّل محمد ديب ذاك الذي يحدث لأي شخص بعينه حتى أولئك الذين مارسوا استراتيجية اللامبالاة تجاه آسيا جبار (ص 191) وحرموه من جائزة نوبل لأنه يرى أن الجزائر بثرواتها المادية والبشرية قادرة على التأسيس لجائزة أدبية عالمية تكون في مستوى عبقرية وكتابات أبنائها الذين شرفوها في محافل الآخرين أو ينتظرون في الرواق.

رحل محمد ديب إلى الأبد بروعة وأناقة، قائلاً في الجملة الأخيرة من الكتاب، وكأنه يلخص معنى الحياة، تأثير المرآة، لهذا الشاعر الذي هو نفسه دون أدنى شك: « لم يعمل الوقت ضده ولكن ضد أولئك الذين لا يزالون يتجاهلونه اليوم «. آخر درس في «سيمورغ».

هامش:

جميع الصفحات المذكورة في النص: محمد ديب ، سيمورغ/ ترجمة عبد السلام يخلف، منشورات سيديا، الجزائر، 2017.

محمد ديب.. سحر الصرخة الباقية

نسيمة يعقوبي بوزيد

تمكنت الكتابة عند محمد ديب من تحرير الأصوات الممنوعة كأصوات الفلاحين والنساء والأطفال، بل حررته هو نفسه، إذ لم ينقطع عن الكتابة طوال حياته، فهو المبدع الذي نشر الكتاب تلو الكتاب، مركّزا على مأساوية الحياة الجزائرية بحيث ساوى بين امتلاك الأرض والحياة، كما ساوى بين فقدانها والموت، فلا بديل عن الوطن ولا حياة هنيئة يمكن أن يجدها الجزائري خارج حدود أرضه، فالأوطان كثيرة لكنها تضيق بالغرباء. محمد ديب هو الحصان الأسطوري والبيت العتيق والأمّ المكافحة في الثلاثية، وهو الحبل المتاهة الذي يضيع فيه الجميع دون أمن.

لقد توصّل محمد ديب إلى إيجاد العلاقة الرابطة بينه وبين الجمهور من خلال البناء الأسطوري الداخلي للرواية ودفع به البعد الرمزي إلى تحقيق نموذج خاص يحمل نبض الهم العام العالمي ويحقق من خلال رواياته بُعداً جماليا يضاف إلى رصيد جماليات الرواية الجزائرية الواقعية، لأن تطور الشكل الروائي لا يحدث في فضاء مجهول، إنه يحدث معنا، هنا في البيت والشارع والحقل والمصنع والمكتب، لأنه عنصر حساس جدا يستطيع أن يعبّر عن التصارع والمعاناة.

ومن هنا كان نجاح محمد ديب في اختياره للرمز والأسطورة التي ليست إلا انعكاسا للواقع، وقيمة الرواية تتوقف على مدى نجاح هذا الرمز الكبير في إبراز هدفها، ويعتبر محمد ديب مجموعة مدارس، لأن الناحية الجمالية أخذت كافة أبعادها في أعماله الأدبية والروائية، وأصبح يشكل أكثر من الجمال كما يقول «روجي غارودي».

ومحمد ديب كمبدع فنان أصيل يدرك بشكل جيد أن المنتج الخالق فنيا لا يكتفي أبدا بالأشكال الجمالية الجاهزة بل يعبر عن حقائق ومشاكل العالم والإنسان والمجتمع بوسائل أكثر قابلية للإيصال من غيرها.

ذاك الطفل القادم من تلمسان

ولد محمّد ديب في الواحد والعشرين من شهر جويلية سنة 1920 بتلمسان، حيث تلقى تعليمه الابتدائي إلى أن تحصّل على الشّهادة الابتدائيّة بفرعيها الأهلي والفرنسي سنة 1931 غير أنّ طفولته تميّزت بمآس كانت لها انعكاسات عميقة على طبعه وأعماله الأدبيّة؛ فقد عرف اليتم وهو لم يكد يتجاوز العاشرة من عمره لمّا توفي والده سنة 1931.

تحمّل المسؤوليّة الأسريّة وهو صغير السّن، فقد صادفت فترة شبابه الحرب العالميّة الثانية وهي فترة مارس فيها مهنا متعدّدة تدلّ على استعداداته وقدراته. فمن معلّم بقرية (زوج بغال) بالحدود الجزائريّة المغربيّة (1938ــ 1940)، إلى محاسب بمكاتب جيوش الحلفاء بوجدة بين سنتي 1940 و 1941، إلى مترجم من الفرنسيّة إلى الإنجليزيّة لدى الجيوش بالجزائر العاصمة بين 1943 و 1944، إلى مصمّم زرابي بتلمسان عام 1945؛ لأنّ محمّد ديب كان رسّاما مؤهّلا قبل أن يكون كاتبا أو شاعرا، ثمّ عمل صحفيّا بجريدة الجزائر الجمهوريّة بين عامي 1950 و 1951 إلى جانب مساهمته في دورية ليبرتي. التحق بجامعة الجزائر حيث درس الآداب بين سنتي 1940 و 1944 في حين كان يمارس الكتابة وكان قد نشر بعض النّصوص التي يصوّر فيها فترات البؤس، فيقول عن فترة إقامته بالعاصمة بين 1943 و 1944:«كان همّنا الكبير بتلك الفترة العثور على ما نأكله... كثير من النّاس كانت تموت جوعا».

مارس العديد من الأعمال الثقافيّة وفي عام 1946 بدأ ينشر قصائده ومقالاته، وقد أثّرت مهنته كعامل نسيج في إبداعه الشّعري والرّوائي، وهي من دون شك وضعية جعلت الكاتب يميل عاطفيا وسياسيا؛ إذ انخرط لمدّة قصيرة في الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1951.

وفي عام 1948، زار محمّد ديب فرنسا لأوّل مرّة من خلال وفد أدباء جزائريين، وبعد ثلاث سنوات، تزوّج من زوجته الفرنسيّة وسافر إلى فرنسا عام 1952 كي يحضر صدور روايته الأولى «الدار الكبرى»، وأقام هناك حتّى عام 1954 حيث نشر الجزء الثاني تحت عنوان «الحريق» L'incendie، وفي عام 1956 نشر مجموعته القصصيّة «في المقهى» ثمّ نشر الجزء الثالث والأخير سنة 1957 تحت عنوان «النّول». في عام 1959 اضطرّ إلى الهجرة إذ تمّ طرده من الجزائر لمواقفه المناهضة للاحتلال الفرنسي، ولم يُسمح له بالإقامة بفرنسا إلاّ بعد تدخّل مجموعة من كبار الكتّاب الفرنسيين لصالحه.

تزوج محمّد ديب سنة 1951 بـ «كوليت بيليسون» الفرنسيّة الأصل وأنجب منها أربعة أطفال.

قام بأسفار عديدة إلى دول كثيرة حيث عمل أستاذا بجامعة لوس أنجلس وفنلندا والسوربون وكان خلال كلّ ذلك على اتّصال دائم بالجزائر إلى أن توفيت والدته سنة 1983.

بدأ يكتب الشعر وهو لا يتجاوز الرابع عشرة من عمره، ومع بداية الستينيات تحوّل إلى الشّعر من جديد فنشر ديوانه الأوّل «الظلّ الحارس» وديوانه الثاني «تشكيلات» ثمّ «أومنيروس» و«أيّتها الحياة» و«نيران جميلة».

فأوّل قصيدة معروفة للكاتب نشرت سنة 1946 وهي قصيدة «فيفا» (نجم) وبها نجد ميولا مبدئيّة نحو الحنين إلى الأندلس، ونحو الميثولوجيا والصّوفيّة والشموليّة والصنعة اللّفظيّة الممتازة، وأكد الكاتب الشاب آنذاك طبعه وطموحه خلال الأيّام الثقافيّة بسيدي مدني بضواحي مدينة البليدة عام 1948 لمّا صرّح قائلا إنّه يريد أن يكتب عن كلّ شيء. غير أن الفترة التاريخية التي كان يمر بها الشّعب الجزائري بعد الحرب العالميّة الثانية جعله يتّجه نحو تعبير أدبي ذي طابع واقعي، فكتب ثلاثيته المشهورة؛ حيث استعرض فيها الوضع المزري للشّعب الجزائري في المدن والأرياف نتيجة الاستعمار، فقدّم شهادة حيّة من خلال هذه الثلاثيّة عن بؤس وشقاء واستعباد الجزائريين وجشع المعمّرين ونضج الوعي السياسي لدى الشعب الجزائري خاصة في رواية «الحريق» الّتي حملت نبوءات عن الثّورة المسلّحة.

عبر عن فترة العمل المسلّح بوسائل فنّيّة مختلفة من شعر ومسرح ومقالات وغيرها... وفي عام 1962 نشر روايته «الجري فوق الشاطئ» ثم «رقصة الملك» وبعدها «إله في الوحشية» ثمّ «سيّد القنص» و«هابيل» و «شرفات أورسول». من أشهر مجموعاته القصصية «الطّلسم»، أمّا مسرحيته فهي بعنوان «ألف مرحى لمومس» لأنه كان مسرحيا محنكا وناقدا كبيرا في فنّ المسرح.

في روايته «شرفات أورسول» مثلا، هناك تشابه بين بطل الرّواية عيد وبين هابيل، فهو محكوم عليه أن يغادر بلاده في مهمّة رسميّة إلى بلد في الشمال أطلق عليه اسم أورسول وعاصمة هذه الدّولة هي ياربر. إنّها بلاد الشّمس الّتي تسطع في منتصف اللّيل، ومن الواضح أنّ محمّد ديب قد حاول أن يكتب رواية عن فنلندا الّتي عاش فيها سنوات طويلة.

وكان آخر كتاب نشره محمّد ديب هو ديوان «أيّتها الحياة» حيث نجد لغة الكاتب الشّعريّة قد تغيّرت. فبعد قصائده الطويلة، نرى أنّ قصائده الجديدة قصيرة للغاية، ومن هذه الأمثلة ما يلي: «وقال البحر/ الوجه لاهث/ والتباعد كبير/ بين الشاطئين/ وآخر الأجنحة/ البيضاء».

ينابيع الرؤيا

ويقول لنا محمّد ديب أنّه قرأ في شبابه لأعلام الأدب وكان قد تأثر بالرّوائية الإنجليزية خاصة فرجينيا وولف في «المنار والأمواج» و دوس باسوس ووليام فولكنر وستاينبيك ،كما سافر إلى ألمانيا الشرقية بعد أن أقام مدّة في مودن لافوري واستقرّ في لا سيل سان كلو بضواحي باريس.

لقد عاش تلك الصّراعات العنيفة الّتي كانت تمرّ بها الجزائر والصّراع الفكري الّذي أصبح سلاحا للمعركة، فالثلاثيّة تعد صورة واضحة لحياة الشعب الجزائري في تلك الفترة بالذات: بداية الوعي القومي والشعور بالكرامة، وفترة التهيئة النّفسيّة للمعركة.

لقد تحصّل محمّد ديب على عدّة جوائز قيّمة وتشجيعيّة وتكريميّة اعترافا بكفاءته وموهبته وسعة رؤيته، فمنحت له جائزة «فينيون» سنة 1952 عن «رواية الدّار الكبرى» ومنحت له جائزة «روني لابورت» سنة 1961 على المجموعة القصصيّة الشّعريّة «الظلّ الحارس» ثمّ الجائزة الاجتماعيّة سنة 1963، ثمّ جائزة المعهد الشّعري لمونتان 1964، ثمّ جائزة اتحاد الكتّاب الجزائريين سنة 1966، وجائزة أكاديميّة الشعر على مجموع عمله سنة 1971، ثمّ جائزة جمعية كتّاب اللغة الفرنسية سنة 1978 عن روايته هابيل. ويحتل محمّد ديب مكانة مرموقة في الموسوعة السوفياتيّة الكبيرة وكذلك في الموسوعة العالميّة لآداب القرن العشرين، وقد أثبت اسمه في مختلف طبعات لاروس منذ سنة 1979، وفي مختلف القواميس منذ سنة 1965. كانت آخر جائزة تحصّل عليها كانت جائزة الأكاديميّة الفرنسيّة سنة 1994.

ويبدو محمّد ديب مستعصيا على الفهم؛ حيث أبدى له بعض القراء ملاحظة في ذلك الشأن فردّ غاضبا، يقول صاحب المقال: « هل أنا ألّفت كلمات متقاطعة فتطالبونني بالحل؟».

لقد كان محمّد ديب في المرحلة الأولى من حياته يعي بأنّه جزء لا يتجزّأ من شعبه ويريد أن يكون أكثر من شاهد على المأساة، يقول: «إنّنا نعيش دراما مشتركة»، لأنّه لا يعتبر العمل الأدبي ذا قيمة إلاّ إذا كان نابعا من أعماق التجربة، وهذه سمة تميّز جميع أعماله الأدبيّة. ولتصوير الواقع اختار أن يكون مناضلا يضمّ صوته إلى صوت شعبه ويقول سنة 1961: « بصفتي كاتبا، لقد اخترت أن أحارب في ميدان الأدب، ولأنقل الحقائق الجزائريّة، وأتقاسم مع الّذين سيقرؤون كتاباتي آمال وآلام وطننا».

شكلت الجزائر محورا أساسيا لقصص وروايات محمّد ديب، وظلّت حاضرة رمزيا انطلاقا من روايته «هابيل» لمّا تحوّل الكاتب إلى تبني فضاءات لا محدودة المعالم تماشيا وموضوعات بحوثه الجديدة.

ومع ظهور رواية «من يذكر البحر»، تناول القضية الوطنيّة بأسلوب مغاير للنهج الواقعي، فعبّر بأسلوب رمزي، وعنها تلقى محمّد ديب الكثير من الأسئلة حول الأسباب الّتي دفعته إلى الكتابة « بهذا الأسلوب الفنّي الجديد الرّمزي، فأجاب قائلا: «... لا أجد إجابة إلاّ لماذا رسم بيكاسو لوحته غرنيكا بالشّكل الّذي هي عليه وليس كإعادة تشكيل للتاريخ».

بعدها ظهرت رواية «مسيرة على الحافة المتوحشة» والتي تنتمي إلى الخيال العلمي. أمّا في روايته «رقصة الملك» يعود إلى الحديث عن الوطن والاهتمام بالقضايا الوطنيّة محاولا ربط الماضي بالحاضر. وفي سنة 1970 يعود إلى الأسلوب التسجيلي الواقعي من جديد في روايته «إله في الوحشيّة» وهنا يتحدّث عن الجزائر المستقلة، وعن كلّ فئات الشّعب الّتي تريد أن تخرج من الوحشيّة وتواجه الحقيقة، وهي تريد الخروج من الفوضى والبحث عن ذاتها. في 1973 ظهر الجزء الثاني من هذه الثلاثيّة تحت عنوان «معلّم القنص» وهي تعالج الواقع النّفسي والاجتماعي بصفة عامّة.

حقائب السفر نحو الشمال

وفي سنة 1977 نشر روايته «هابيل» ويتناول فيها موضوع «الاغتراب»، وبعدها ظهرت رواية «سطوح أرسول» التي يتناول فيها موضوعات إنسانيّة وكذا موضوع الاغتراب أيضا، وهي ثلاثيّة جديدة تسمى

«ثلاثيّة الشمال» إضافة إلى رواية «إغفاءة حواء» و «ثلوج من رخام» سنة 1990.

واصل مسيرته الإبداعيّة في البحث عن الذات الإنسانيّة والمواضيع الفلسفيّة في رواياته الجديدة من خلال رواياته:

«الصّحراء بكلّ صراحة» ، «الأميرة الموريسكية»، «إن شاء الشيطان» و«الليل المتوحّش»و «مثل دوي النحل» و«رحلة لوس أنجلس» و «لايزاء».

يمكن أن نلخص المسار القصصي للكاتب محمّد ديب في أربعة مراحل فنيّة متميّزة هي:

1. مرحلة الواقعيّة (ثلاثيّة الجزائر) بما فيها فترة انتقاليّة مع رواية «صيف إفريقي» ومجموعة «في المقهى».
2. مرحلة تحوّل جذري وصريح نحو السّرياليّة والصّوفيّة مع روايتي «من يذكر البحر» و "مسيرة على الحافة المتوحشة".
3. مرحلة واقعيّة جديدة من مجموعة "الطلسم" إلى رواية "ولي الصيد" وهي مرحلة تجمع بين مكتسبات الواقعيّة والسرياليّة وترسيخ الطابع الصّوفي.
4. مرحلة الفضاءات والرّمزيّة انطلاقا من رواية "هابيل".

إنّ المسار الإبداعي عموما والرّوائي بصفة خاصّة ينحصر في محورين أساسيين هما القضية الوطنيّة والإنسان. فمنظور محمّد ديب الإبداعي أعطى للأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية وللرأي العام الأدبي في العالم قيمة إنسانية قوبلت باحترام شديد، فاهتمامه بنقد المسرح الجزائري والتأريخ لنشاطه يعود إلى شعوره بأن فترة الخمسينيات كانت فترة مهملة تحتاج إلى جمع ودراسة وإطلاع إضافة إلى أنه حاول عن طريق النقد أن يؤرخ للمسرح الجزائري في جذوره الأولى، من خلال العودة إلى التراث العربي الجزائري.

ومن هنا تبرز مميزات التجربة النقدية لمحمد ديب فيما يلي:

استلهام التراث الجزائري واستمداد كل مل يثري مقومات الأصالة للوصول إلى التميّز وجعل الواقع الجزائري نقطة ارتكاز للانتقال إلى الواقع العربي والعالمي.

يهدف العمل المسرحي عند محمد ديب إلى دفع الجمهور للقيام بعمل ما لتغيير هذا الواقع وبناء واقع أفضل.

التعريف بالأشخاص الذين ساهموا في ترسيخ الفن المسرحي وتشجيع العنصر النسائي وإبراز دوره وريادته.

تظل نصوص محمد ديب النقدية والإبداعية دليلا على انتماء هذا الأدب -رغم توظيفه للغة الفرنسية -إلى الأدب الجزائري، حيث يبقى رافدا هاما من روافد الثقافة الوطنية الأصيلة.

وهكذا فإنّ محمّد ديب قد اختار طريق الثورة والتزم بها ملتحما بصفوفها، ومن هنا لم يقف الكتّاب الجزائريون من التاريخ موقف اللاّمبالاة ولم تعنهم المتاهات الميتافيزيقيّة أبدا بل قدّموا القضيّة الوطنيّة والتزامهم ببلادهم. ويقول محمّد ديب في هذا الصدد: «في قلب كلّ كاتب حقّ، وكلّ فنّان صادق تكمن رسالة وطنيّة لا تقوم له قائمة بدونها».